الغطاء النباتي والتوازن البيئي

غدير سليم

"إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها، فليغرسها"
[رسول الله (ص)]

تمهيد

أضحى الحفاظ على البيئة من المسائل الملحّة في هذا العصر، ولا سيما بعد أن اختلّ التوازن البيئي في معظم مناطق الكرة الأرضية بفعل ما قام به البشر فرادى وجماعات، من تخريب للبيئة عن قصد أو غير قصد.

وما يشهده العالم اليوم من تحوّلات كبيرة في المناخ كالفيضانات والجفاف والتصحّر، أو انقراض أنواع عديدة من النباتات والحيوانات، ينذر بعواقب وخيمة على كل الكائنات الحيّة، بدءاً بالإنسان، ومروراً بالحيوانات والنباتات.

فالحفاظ على البيئة بات ضرورة تتطلب العمل لذلك جهود الحكومات والمجتمع المدني بأفراده وجمعياته ولجانه. وما المؤتمرات العالمية التي تعقد من أجل الحفاظ على البيئة إلاّ دلالة على تحسّس الدول لمخاطر العبث بالبيئة وتعريضها للتلوث والتخريب.

الاهتمام بالبيئة، سمة غربية؟

يعزو الكثيرون منا الاهتمام بالبيئة إلى الغرب، ويرون أن أصداءه وصلت إلى باقي البلدان، بما فيها العربية والإسلامية، وأن تلك البلدان أخذت تهتم بالبيئة وفق تشريعات وقوانين، كل منها بحسب وعيها وإمكانياتها وحسن تخطيطها.

لكن نظرة في المرويات الإسلامية تدلنا على أن الإسلام تطرّق إلى البيئة وقضاياها عبر مبادئ رئيسة وخطوط عامة، تاركاً للإنسان إعمال عقله وتحريك

قدراته عند تعرضه لمشاكل سوف تواجهه على مستوى البيئة، أو على مستوى غيرها من القضايا التي يواجهها العالم الإسلامي اليوم، وتشكل تحدّياً صارخاً، إن في مجال البيئة والتنمية، أو في مواجهة التخلف والأمية وسوء الأوضاع الصحية وغير ذلك. فتلك القضايا أضحت تشكل تحدّياً للعالم الإسلامي في ظل نظام عالمي يكاد يجتاح بمنظومته الفكرية والاقتصادية البلدان الفقيرة بخططها التنموية والإدارية والسياسية.

في هذه المقالة سنلقي الضوء على أهمية الأشجار وأثرها في التوازن البيئي.

النبات في القرآن الكريم

ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدث عن النبات كالأشجار المثمرة وغير المثمرة، والأعشاب والحبوب، تأكيداً لعظمة الخالق جلّ وعلا، ولفوائدها الجمّة، من تلك الآيات على سبيل المثال:

﴿**..فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها...**﴾ [النمل: ٦٠].

﴿**..فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتّى *كلوا وارعوا أنعامكم..**﴾ [طه: ٥٢ـ٥٣].

﴿**هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون * ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون**﴾ [النحل: ١٠ـ١١].

فالله تعالى خلق الأشجار بأنواعها المختلفة لصالح كل الكائنات الحية، ولذلك وجب على الإنسان الحفاظ على الأشجار، فلا يسرف في قطعها، ولا يهملها أو ينزعها دون زرع أخرى. ففي بدء التاريخ كان القسم الأكبر من مساحة اليابسة مكسواً بالأشجار والغابات الكثيفة، باستثناء الصحاري والمناطق القطبية، وبدأ الإنسان بقطع الأشجار لأسباب عديدة منها:

- الاستفادة منها إما للوقود أو لصنع أدواته الخشبية أو للبناء.
- لإخلاء مساحة أرضية من أشجارها البرية لزراعة غرساته ونباتاته الأكيلة مكانها، حتى يقتات منها مع أفراد أسرته.
- أو لبناء البيوت مكان الأشجار.

في تلك المراحل البدائية، لم يكن قطع الأشجار يشكل كارثة بيئية، بل بالعكس، إذ كان ضرورة لحياة الإنسان في طبيعة شاسعة قليلة السكان. لكن مع انتشار المدنية

الحديثة، بدأت الغابات تنحسر بشكل متسارع أمام هجمة المنشآت المدنية من طرق ومدن ومرافئ ومصانع ومرافق ذات مردود تجاري.

وفي الماضي كان الحطابون يحرصون على عدم اقتلاع أشجار الغابة من جذورها، وكانوا ينتظرون بعد قطع الأشجار لصناعة الفحم، فيتركونها سنوات حتى تنمو من جديد نموها الطبيعي قبل قطعها مجدداً.

أما اليوم، فقد تحوّلت صناعة الخشب إلى صناعة كبيرة تستخدم فيها بشكل شرس أضخم آلات القطع والنشر والاقتلاع والنقل، وأضحت الشركات المتولية قطع الأشجار من أقوى شركات العالم، وهي شركات منظمة ونافذة.

ففي كل عام يقطع ما يقارب ١١٥,٠٠٠كلم[٢] من أشجار غابات المطر الاستوائية، ومنذ عام ١٩٤٥ دمرت أكثر من نصف تلك الغابات، ومع استمرار معدل التدمير الحالي، فسوف تختفي مئات الأنواع من النباتات والحيوانات.

ويعتبر قطع الأشجار من أجل أخشابها في المناطق المعتدلة البرودة تهديداً أساسياً لغابات الصنوبر. ففي الولايات المتحدة الأميركية قد تمّ قطع مساحات واسعة من الغابات من أجل أخشابها وأوراقها. وعلى الرغم من البرامج الموضوعة لإعادة زراعة الأشجار عوضاً عن تلك التي قطعت، إلاّ أن الغابة الجديدة تحتوي على أنواع أقل بكثير من الغابة الأم. فعندما تزول الغابة الصنوبرية تموت على أثر ذلك العديد من الأنواع الحيوانية والنباتية كذلك.

أهمية الغابات والأشجار غير المثمرة

أدّت التعرية المنظمة والواسعة النطاق للغابات والإسراف في استغلالها لصناعة الخشب إلى تجريد عدد من المناطق من ثرواتها الحرجية وتحويلها إلى أراض جرداء، الأمر الذي يساهم في تهديد البيئة والإساءة إلى المناخ، وإفقاد الأرض إحدى أهم ثرواتها. فالغابات تشكل أفضل مصفاة لتعديل المناخ وتنقية الجو، وحفظ التربة من الانجراف، كما أن ذلك التنوع النباتي والحيواني في الغابات يساعد على التوازن البيئي.

وتبقى للغابات أيضاً منافعها الجمّة لما توفره من أخشاب وثمار ونسغ لصناعة المطاط مثلاً.

ولا عجب أن يدعو الرسول (ص) إلى عدم قطع الأشجار، وقد رُوي أنه قال (ص): "**أخرج يا علي فقل عن الله لا عن رسول الله، لعن الله من يقطع السدر**".

وكأن هذا الحديث دلالة على وجوب الحفاظ على الأشجار وعدم قطعها حتى وإن كانت غير مثمرة.

ماذا عن الأشجار المثمرة؟

لا يخفى على أحد أهمية الأشجار المثمرة لفوائدها على المستوى الصحي والبيئي. وقد وردت أحاديث عن الرسول (ص) وأهل بيته الأطهار (ع) تحث على الزرع والغرس. ومما قاله النبي الأكرم (ص) في ذلك: "**ما من مسلم يزرع زرعاً أو يغوس غرساً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلاّ كانت له به صدقة**".

وقال (ص): "**من نصب شجرة وصبر على حفظها والقيام عليها حتى تثمر، كان له في كل شيء يصاب من ثمرها صدقة عند الله**".

فمنافع الثمار تشمل الإنسان والحيوان والطير، ويتكشف للعلم يوماً بعد يوم فوائدها، مقابل أضرار الكثير من الطعام المصنّع، مثالاً على ذلك الطعام الذي يقدّم إلى الأبقار في عدة بلدان، الأمر الذي أدّى إلى مرض جنون البقر. ففوائد الأشجار المثمرة لا تحصى، ونجد تفاصيل ذلك في المجلات والدوريات الطبية.

وكان دأب الرسول (ص) وأهل بيته الأطهار (ع) التأكيد على الزرع والغرس لحكم أودعها الله تعالى في النبات، فقد سأل رجل الإمام الصادق (ع) قائلاً له: جعلت فداك، أسمع قوماً يقولون: إن الزراعة مكروهة؟ فقال (ع) له: "**ازرعوا واغرسوا، فلا والله ما عمل الناس عملاً أحلّ ولا أطيب منه**".

وقال الرسول (ص): "**لا تقطعوا الثمار** [أي الأشجار المثمرة] **فيصب الله عليكم العذاب صباً**".

وأي حث أكبر على الغرس مما قاله (ص): "**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها**".